كيف وجدت العالم العربي؟

تقرير مرفوع إلى جزيرة العرب

الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

لقد كتبت وأنا متوجه إلى مصر، وقد تحركت بنا الباخرة في ميناء جدة يوم السبت ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٧٠ هـ ٢٠ يناير ١٩٥١ م، « وداعاً أيتها الجزيرة العربية غير مهجورة ولا مملولة، فليست هذه الرحلة إلا في سبيلك وللاتصال بأسرتك العزيزة المنتشرة على ساحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أبلغها تحياتك وأرى ما فعلت الأيام بها بعد انفصالها عنك، وسأفصل برسالتك التي حملتها عنك للعالم والأمانة التي تقلدتها، ثم أعود إليك إن شاء الله أحكي لك قصة هذه الأقطار الإسلامية العربية وما شاهدت في هذه البلاد من خير وشر، وما رأيت لأبنائك من وفاء لك وجفاء، بكل أمانة وصراحة، فالرائد لا يكذب أهله، ومن الكذب المهلك والخيانة المردية المجاملة في الأخبار والمبالغة في التفاؤل»(١)

(١) يوميات سائح في الشرق الأوسط

وهذا أوان إنجاز الوعد

يسرني أن أقول لك أيتها الجزيرة العزيزة أن أسرتك العربية لا تزال تنتمي إلى الإسلام ولا تزال تعتز بعروبتها ولا تزال تنسب نفسها إليك وترد دينها ولغتها إلى منبعهما في ربوعك، وتبدأ تاريخ حياتها الجديدة بيوم أشرق فيه النور من غار حراء فكان الصبح الصادق للعالم، وقد احتضنت هذه البلاد تراثك الأدبي والثقافي وتينت امتك وضمتها إلى صدرها وزادت في ثروتها زيادة لا تخطر على بال ملك ولا من شعراء جاهليتك، ولا يسعك عليها إلا الشكر والاعتراف بالجميل، وقد كانت هذه البلاد وفية للغتك، وفية لقوميتك، وفية لثقافتك وفية لتاريخك

وإن أسرتك العربية لم تقطع صلتها في يوم من الأيام من دينك الذي عاهدتها عليه وأوصيتها به يوم ودعتها وأرسلتها لتفتح العالم وتنقذه من الجاهلية. وكم حاول الحساد أن تقطع هذه الأسرة الكريمة صلتها عن الإسلام وترجع إلى جاهليتها الأولى أو تعتنق الجاهليات الحديثة. وكم زينوا لها الانسلاخ عن عقيدتها الإسلامية والانفصال عن الجامعة الإسلامية، وأن تدين بالقومية العربية والوطنية الضيقة، فلم تكن منها في كل عصر ومصر إلا أن ثارت روحها الإسلامية وهاجت غيرتها الدينية فازدادت إيماناً بهذا الدين وأحبطت مساعي المفسدين، ولا نعرف من بين الشعوب والأمم أسرة أكثر وفاء وأعظم أمانة وأشد تعلقاً بالماضي وغيرة على اللغة من هذه الأسرة العربية التي تسكن الشرق الأوسط الذي هو مجرى تيارات المدنية والغزوات السياسية، فقد تطور كل شيء وقد تطورت هي كذلك في ثقافتها وأدبها وحياتها تطوراً كبيراً ولكنها لا تزال متشبثة بدينها متعصبة للغتها، فليهنك أيتها الجزيرة من أبنائك هذا الوفاء وهذه الاستقامة

إن في العالم العربي كثيراً مما يسرك ويسر جيلك الأول لو بعث، فلا يزال الأذان تدوي به الآفاق؛ ولا يزال التوحيد والرسالة المحمدية يملئ بهما على الشرفات، والصلوات تقام والقرآن يتلى بلحن عربي شجي لو سمعته أيتها الجزيرة لطربت له واعتقدت أنه لم يقرأ إلا في هذه البلاد، ولو سمعت العلماء يفسرونه

ممن يملك المليون ويطلب مليونين، لأن ذلك ينقصه مليون، فهو يحن إليه، ويتحسر عليه، وأنت لا ينقصك شيء

جربوا هذه المظمة في رمضان، لا تفكروا في الطعام، لا تثركم موائد الملوك، ولا ما احتوت المطاعم، ولا تفكروا بالنساء، لا يثركم حور الجنان

هذا رمضان يا أيها الإخوان، فخذوا منه الصحة لأجسامكم، والسمو لأرواحكم، والحب لقلوبكم، والعظمة لنفوسكم، والقوة والنبل، والبذل والفضل، وخذوا منه ذخرا للعالم كله يكن لكم ذخرا

أعاده الله عليكم بالخير والنصر والإقبال

علي الطنطاوي

٣٨٠٤٢

ويتكلمون فى موضوع دينى توهمت أنه لم يفهم إلا فى هذا العصر ، والعالم يخدم ويبشر ، وفى كل يوم يتدفق سيل من المطبوعات الدينية لا يقل فى الفيضان عن الزيت الذى يتدفق من شرقك إلى غرب العالم

هذا كله مما أشهد به وأهنئك عليه، فقرى عيناً وطيبى نفساً يا أم العالم العربى ؛ فمن أحق منك بالسرور على ذلك ومن أجدر منك بالتهنئة ؟

ولكنى وعدتك وأنا أودعك على ميناء جدة أنى لا أخفى عنك شيئاً وأنى أحمل إليك فى رجوعى كل حلو ومر، وأروى لك من رحلتى ما يسوء ويسر ، وقديماً قالت : أنجز حرما وعد

لست أدرى أيتها الجزيرة العزيزة كيف أعبر عن شعورى المزدوج المركب، وكيف أصف لك ما وجدته وما افتقدته فى هذه الرحلة الطويلة ، وكيف أصور المعانى المتناقضة وكيف أجمع لك بين آلام وآمال . إنى أستعير أولا كلمة لشاعر مؤمن من بلادى قد زار العالم العربى قبلى ورجع منه حزينا يلخص رحلته فى بيتين من شعر ، ذلك الشاعر هو الدكتور محمد إقبال الذى يقول :

« لم أسمع فى مصر ولا فى فلسطين ذلك الأذان الذى ارتجفت له الجبال بالأمس . إن السجدة التى كانت تهتز لها روح الأرض لقد طال عهد الخراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجدبة الخاشعة إلى المطر »

لا يخفى عليك أيتها الجزيرة أن مصدر هذا الأذان الذى كانت الجبال ترتجف له ارتجافا وهذه السجدة التى كانت الأرض تهتز لها اهتزازاً ، إنما هو القلب الفائض بالإيمان، المتلئ بالحب والحنان ، الجرىء على الموت ، الحريص على الشهادة ، الزاهد فى الدنيا ، المستهين بالمادة ، وقد ضعف هذا القلب من مدة طويلة وجنت عليه المادية الغربية والتعليم المادى فأفقدته كثيراً من حنانه وحراوته وخفقانه ، وتأثرت بهذا التحول الحياة فى كل ناحية من نواحيها ومظهر من مظاهرها وعم المسجد والمدرسة والمنزل والسوق ، وشعر به كل من لم يفقد شعوره حتى قام بالأمس أمير الشعراء شوقى فى دمشق يقول

فلا الأذان أذان فى منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان

لقد عانيت هذه البلاد العزيزة على هذا التحول كثيراً وحدثتها حديث رجل لرجل ، ولكنها قالت لى : إن الجزيرة العربية هى المسئولة عن هذا التحول، فقد كانت مصدر الحياة والقوة والإيمان والروح فى العالم كله ، وقد كانت توزع الدم الجديد إلى شرايين العالم الإسلامى وعروقه فضلا عن العالم العربى فشغلت فى العهد الأخير بتصدير البترول عن تصدير دم الحياة الإيمانية ، واكتفت باستصدار البضائع الأجنبية عن توريد بضاعة الإيمان وغذاء الروح إلى العالم . وجادلت عنك أيتها الجزيرة العربية كثيراً واقد أوتيت جدلا ولكنها ألجمتنى بالدلائل والأمر الواقع ، فأقنعتها بما شئت وأدلى بحجتك فإنما هى أسرتك ومن أقرب الناس إليك

وسواء كان منك التقصير أولا ، وكنت المسئولة عن هذا التحول المؤسف أم كان غيرك، فإنى أبشرك أنى شاهدت فى العالم العربى طلائع نهضة إسلامية قوية شاملة، وتباشير صبح صادق ، فقد بدأ الرأى العام يستيقظ، وبدأ القلق الشديد يثاور النفوس، والتذمر من الأوضاع الفاسدة يكاد يكتسح البلاد . وقد بدت حركة رد فعل عنيفة ضد الحضارة الغربية وقيمها ، وظهرت آثار ثورة فكرية سياسية ضد سيادة الغرب والوصاية العالمية التى سلطها الغرب على العالم وفرضها على العالم العربى فرضاً ، واستمر يتحكم فى أمواله وكنوزه وخيراته ، كأنه سفيه أو مجنون أو طفل لم يبلغ سن الرشد ، فها هى الأقطار العربية قد بدأت تفهم الحقائق وبدأت تواجه الغرب المتغطرس كرجل كريم يؤمن بشرفه وإنسانيته ويشعر بشخصيته وكرامته، وكرجل حى يعرف الغضب كما يعرف الرضا ويملك حق الثورة إذا وجدت لها موجبات

لقد بدأ العالم العربى يكفر بالغرب أحيانا بعد ما آمن به طويلا وخضع له طويلا وربط نفسه بعجلته فأصبح يرى نفسه مستقلا؛ وعضوا كريما فى أسرة العالم، يعلم المفسد من المصلح ويميز بين الصديق والعدو ويحتفظ بحقه فى الصلح والحرب والحلف والصداقة

لقد بدأ بعض الأقطار العربية يرنو إلى التقدم الصحيح والاستقلال الصادق . قد بدأ يفهم أهمية الصناعات الوطنية

والإنتاج والاكتفاء الذاتي والاستغناء عن البلاد الأجنبية في مرافق الحياة. وقد بدأ بعض هذه الأقطار يخطو نحو هذه الغاية وإن كانت هذه الخطوات بطيئة وقصيرة، خطوات رجل مثقل بمن أثقال القديم، ولكنها بدأت تزحف كما يزحف الطفل بعد ما بقيت مدة طويلة تابعة لما كان الغرب يرمي إليها من ودعات، وبما يصدر إليها من بضائع وآلات. فقد بدأت الأقطار العربية تتعلم صناعة الموت بعد ما جهلتها طويلا وهجرتها طويلا، وأصبحت تعتقد أنه لا يعيش في العالم إلا من يستطيع أن يموت

وأعظم ما يبعث الأمل في النفوس ويبشر بالمستقبل الإسلامي هو ظهور آثار الإيمان الجديد في العالم العربي، فانك تعلمين أيتها الجزيرة العربية حق العلم أن أسرتك الكريمة ليست في حاجة — وكذلك العالم البشري كله — إلى دين جديد، فإن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الخالد والرسالة الأخيرة، وأنه لا يزال على جدته وقوته مهما تقادم الزمان، وأنه يسع العالم كله والعصور كلها، ولكن أسرتك التي تدين بهذا الدين في حاجة ملحة اليوم إلى إيمان جديد بهذا الدين الخالد، دين كل عصر وجيل، فقد ضعف هذا الإيمان، وقد تجددت فتن، ونشطت دعوات متطرفة وقويت، وكثرت النكبات، ولا يمكن أن يواجه العالم العربي هذه الفتن، وهذه الدعوات، وهذه النكبات بإيمان ضعيف بال، لا يستطيع أن يتحمل صدمة، أو يتغلب على شهوة، أو ينتصر على أنانية، أو يتحمل شدة، أو يقف في وجه دعوة، إنما هو إيمان منهار لا يستطيع أن يعيش ويتماسك في عصر قد جد فيه الجد

ولكني رأيت في الأقطار التي مررت بها في هذه الرحلة بواكير إيمان جديد وطلائعه. لقد رأيت إيمانا فتيا وثابا، لقد رأيت فتية وصفهم ربهم قديما بقوله « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا » هؤلاء الفتية الأقوياء في إيمانهم — وإن كانوا كباراً في سنهم — الذين يعتزون بهذا الدين أكثر ما يعتزون بشيء، إنهم لا ينظرون إليه كتراث قديم وكأثر من الآثار العتيقة أو كشجرة قد انتهى نموها وانقطعت أثمارها، إنما ينظرون إليه كينبع فياض يستمدون منه القوة والحياة، وكشمس ساطعة يقتبسون منها النور والحرارة في كل زمان ومكان، ولا قديم في الشمس ولا جديد، إنما هي حاجة الإنسانية الدائمة ورسول النور والحياة في كل عصر ومصر، وبينما كان ينظر إلى الدين كقضية شخصية لا دخل لها في الحياة العامة، ولا رسالة لها للسياسة والاجتماع، ولا صلة لها بالحكم والتشريع، أصبح ينظر إليه كمنهج للحياة ومنهج للتفكير تتوقف عليه سعادة البشرية، وتنحل به عقد المدنية الحديثة. إن الإسلام لا يعيش على هامش حياتهم إنما يحل منهم محل القلب والعقل والروح. إنهم لا ينظرون إليه كدين من الأديان الكثيرة وكمنهج للحياة من مناهجها الجديدة، إنما ينظرون إليه كالدين الحق الوحيد الذي لا يبقى بعده إلا الضلال ولا يرغب عنه إلا من سفه نفسه. هؤلاء هم الذين قام بهم الإسلام في عصره الأول وسيقوم بهم في هذا العصر

وأعجب ما رأيت هو قوة هذا الإيمان وجدته في الشباب المتعلم، فقد رأيت هذا الجيل الجديد يكاد يفوق الجيل القديم في قوة الإيمان والحماسة الدينية، رأيته يقبل على الدين كنعمة جلية أو طرفة ثمينة، ويذكرنا بسروره وتقديره أولئك الرواد المغامرين الذين كانوا يخرجون لاكتشاف البحار والأقطار المجهولة ويتكبدون في سبيله من المصائب ما يشيب لهولها الولدان، فكان إذا نجح أحدهم في مهمته ملكه الفرح واعترته نشوة الانتصار ونسي ما لاقى في طريقه من النصب والتعب واعتبر ما اكتشفه فتحاً جديداً في حياته وأعز من كل ما يملكه من قديم وما يعلم من قديم، رأيت في هذا الشباب من الشجاعة الأدبية ومن الثقة بالدين وتعاليمه والإعجاب بشخصياته التاريخية ومن التطلع إلى النظام الصالح ومن روح التضحية والإيثار والثورة على النظم الجائرة والأوضاع الفاسدة والتمرد على المادة ومكيافيلية المجتمع الزائفة ما يندر وجوده في الجيل القديم. لقد قرت بهم عيني وانشرحت لهم نفسي واجتمعت بهم وحادثتهم كثيراً في عواصم الشرق الأوسط، وقلت: هذا هو الجيل المنتظر الذي سينهض بالشرق ويرد إليه قوته، وزعامته إن شاء الله